مجلة كلية الآداب
"دوريَّةٌ – أكاديميَّةٌ – علميَّةٌ – مُحَكَّمةٌ"
عدد (٤٠) مارس ٢٠١٦م ص ص: ٣١ - ٤٦
جامعة سوهاج
كلية الآداب

الأمثال القرآنية وروعة الصورة البيانية
دراسة تحليلية

د. عاطف حسن عبد اللاه عبد الواحد (*)

سوف يكون عرض البحث على النحو التالي:

١) ملخص البحث.
٢) المقدمة.
٣) أسباب اختيار الموضوع.
٤) أهداف البحث.
٥) منهجية البحث.
٦) الدراسات السابقة.

* **المبحث الأول بعنوان:** تعريف المثل، وأهميته، وفوائده، وفيه ثلاثة مطالب:
  - المطلب الأول: تعريف المثل.
  - المطلب الثاني: أهمية الأمثال في القرآن الكريم.
  - المطلب الثالث: فوائد الأمثال.
* **المبحث الثاني: الأمثال في القرآن الكريم**، وفيه أربعة مطالب:
  - المطلب الأول: الأمثال في النصف الأول من القرآن.
  - المطلب الثاني: الأمثال في النصف الثاني من القرآن.
  - المطلب الثالث: عظمة الأداء القرآني للمثل.
  - المطلب الرابع: ملاحظات على أمثال القرآن.
* **الخاتمة.**
* **التوصيات.**
* **المصادر والمراجع.**

ملخص البحث

يتضمن هذا البحث قضية الأمثال القرآنية دراسة تحليلية، وقد قمت في بدايته بتعريف القضية، ثم تحدثت عن أسباب اختيار هذا البحث، ثم تحدثت عن أهداف البحث، وكذلك تطرقت لمنهجية البحث، والدراسات السابقة لهذا البحث، ولم يسعني ذكر كل القضايا التي تناولها علماء البلاغة، فتكلمت عن تعريف المثل، وأهميته، وفوائده، ثم تكلمت عن الأمثال في العهد المكي والعهد المدني، ثم تحدثت عن عظمة الأداء القرآني للمثل، وكان من أبرز دوافع موضوع الدراسة تميز الموضوع بالربط بين الدراسة البلاغية والدراسة النحوية والدراسة الصرفية والدراسة الدلالية، ودمج هذا الخليط كله؛ ليتحقق الهدف في معرفة مفهوم المثل في القرآن الكريم، وأهميته وفوائده، ومعرفة الفوائد والدقائق اللغوية والبلاغية في القرآن الكريم، واعتمدت

(*) دكتوراه في بلاغة القرآن الكريم.

على المنهج الوصفي، وذلك بشرح القضايا شرحاً يسيراً، فإن جوانب الإعجاز في القرآن عديدة، منها الأمثال التي قربت البعيد إلى الذهن وأبرزت المعقول في صورة المحسوس، وجعلت الغائب حاضراً ومشاهداً.

لقد بلغت الأمثال مكانة عالية ودرجة سامية، فجعلها الله مقياساً للعقلاء وميزاناً للعلماء، وسمى من يعقلها بهذا الاسم "العاملون". قال تعالى: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلاَّ الْعَالِمُونَ} [العنكبوت:٤٣]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، المنزل عليه القرآن آية للتحدي، ودستوراً للهداية، ومناراً إلى العلم والمعرفة، وتبياناً لكل شيء في أسلوب جمع إلى النصاعة، روعة التصوير وقوة البيان، فكان آية الآيات ومعجزة المعجزات.

الأمثال لون عظيم من ألوان الأدب، ولقد حفل القرآن بكثير من الأمثال التي تعددت موضوعاتها، وتباينت صورها، وكثرت مجالاتها إنها ذات أسلوب رصين، وبيان رائع، وتصوير صادق، ولا أدعي لنفسي الكمال، أو أني وفيت الموضوع حقه، فالموضوع كالبحر، ومتى نضب البحر من الماء؟ ومتى خلا من اللؤلؤ والمرجان؟ إن مادة هذا البحث متوفرة ومتناثرة في بطون الكتب، ولم يكن لي من جهد إلا جمع هذه الأصداف، واقتناص هذه الجواهر، وترتيبها وتنسيقها.

لقد وصف الرافعي ألفاظ القرآن ومعانيه قائلاً: "ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا لانت فأنفاس الحياة الآخرة، ومعان بينا هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقة تستروح منها نسيم الجنان، ونور تبصر به في مرآة الإيمان وجه الأمان"(١)

أسباب اختيار الموضوع

إن أبرز الدوافع والأسباب وراء اختيار هذا البحث الماتع تتلخص فيما يلي:

١. أهمية هذا الموضوع؛ لتعلقه بالقرآن الكريم.
٢. تضمن الموضوع مادة بلاغية غزيرة، عنيت في التدليل عليها بالقرآن الكريم ومحاسن صياغته.
٣. تميز الموضوع بالربط بين الدراسة البلاغية، والدراسة النحوية، والدراسة الدلالية، ودمج هذا الخليط كله في معرفة النسق القرآني وأسراره.
٤. نحت الأمثال نحواً فريداً متميزاً فأبرزت المعقول في صورة المحسوس وجعلت المعنوي في ثوب المحسوس، هذا بالإضافة إلى أنه لون من إعجاز القرآن الفني والأدبي.

أهداف البحث

١. معرفة مفهوم المثل في القرآن الكريم، وأهميته وفوائده.
٢. معرفة الدقائق اللغوية والبلاغية في القرآن الكريم.
٣. ضرورة الربط بين الأمثال القرآنية وعلوم اللغة.
٤. بيان الإعجاز اللفظي في القرآن الكريم.

(١) تاريخ آداب العرب. جـ٢ –صـ٣٠

٥. الاهتمام بدرس السياق القرآني المترابط ككل؛ إذ لا تؤخذ كل آية على حدة.

منهجية البحث

أما المنهج الذي اعتمدت عليه في عرض البحث فهو:

المنهج الوصفي وذلك بشرح الأمثال شرحاً يسيراً، وتوضيح الفروق بين تلك التي يتم تداولها.

الدراسات السابقة:

١. كتاب الأمثال في القرآن للدكتور محمود بن الشريف- طبع دار المعارف.
٢. أمثال القرآن للأستاذ/ محمود عادل شريف.
٣. الأمثال في القرآن لفضيلة الشيخ/ محمد متولي الشعراوي.
٤. الحكمة والمثل للأستاذ/ عبد الله السقا.
٥. التشبيه والتمثيل للأستاذ/ أحمد عبد المجيد الماحي.
٦. الأمثال في القرآن الكريم والسنة النبوية. د. على يوسف السبكي.
٧. الأمثال القرآنية- عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني.
٨. أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي- نور الحق تنوير.

*** المبحث الأول بعنوان: تعريف المثل، وأهميته، وفوائده.**

قبل البدء في الجانب التطبيقي الخاص بقضية "الأمثال القرآنية وروعة الصورة البيانية" لابد من الوقوف على تعريف المثل، وكذلك معرفة أهمية المثل وفوائده، وسوف نستعرض المسألة في ثلاثة مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: تعريف المثل.

قال ابن منظور: "والمثل والمثيل كالمثل والجمع أمثال، وهما يتماثلان، والمثل: الشيء الذي يضرب الشيء مثلاً فيجعل مثله"(١)

والمَثَل والمِثل والمثيل كالشَّبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى.

يقول د. الراجحي: "وأصل المثال من المثول بمعنى الانتصاب؛ فيقال: مثل الشيء إذا انتصب وتصوره، ومنه قول النبي -ﷺ-: من أحب أن تمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار"(٢)

قال ابن دريد: "المثل النظير والمثل السائر معروف من الأمثال، وجمع مثل أمثال وكذلك مثل... ويقال: مثلت كذا وكذا أي شبهته"(٣)

ويقول الزمخشري: "ومثّله به: شبهه، وتمثل به: تشبه به ومثل الشيء بالشيء سوى به"(٤)

قال لويس معروف: "المثل: الشبه والنظير، القول السائر بين الناس بمضربه أي الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، وألفاظ الأمثال لا تتغير تذكيراً وتأنيثاً وإفراداً وتثنية وجمعاً، بل ينظر فيها -دائماً- إلى مورد المثل أي أصله. ويوصف به المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ويطلق على العبرة والصفة والحجة"(٥)

---

(١) لسان العرب. جـ ٨- صـ ٢٠٠
(٢) النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم. صـ٥٣
(٣) جمهرة اللغة. جـ٢ - صـ٥٠
(٤) أساس البلاغة. صـ٤٢٠
(٥) المنجد في اللغة والأعلام. صـ٧٤٧.

قال ابن السكيت: "المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك الوصف شبهوه بالمثال الذي يعمل على غيره"(١)

ويذكر الدكتور الراجحي ضابطاً للمثال فيقول: "وقد يقال في ضبطه: إنه جملة من القول تستقل بذاتها وتشتهر بالقبول والتداول فتنقل عما وردت فيه أولاً إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وقد يتوسع في ضابطه فيمتد إلى كل كلام بليغ شائع حسن مشتمل على تشبيه رائع أو استعارة تمثيلية أو كلمة جامعة أو موعظة نافعة أو كتابة بديعة. ثم إنه كثيراً ما يطلق –لا سيما في القرآن الكريم– ويراد به الحالة والشأن القريب والوصف العجيب والقصة الطريفة– سواء كان في الكلام تشبيه أم لا"(٢)

يقول د. بكري: "والمثل في الأدب: قول محكي سائر، يقصد منه تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله. تقول العرب: رُبَّ رمية من غير رامٍ. أي ربما إصابة هدف حصلت من رامٍ شأنه أن يخطئ. فهذا المثل وضع في أصل لمعنى معين، ويجوز أن يُقال ويتمثل به في كل حال تشبه الحالة الأصلية الأولى. قم قال: ولا تختلف صيغة المثل في كل استعمالاته، فيروي كما هو دون زيادة أو نقصان"(٣)

استعمالات المثل: للمثل استعمالات عدة، فقد يستعمل على سبيل الاستعارة كضربك المثل: "الصيف ضيعت اللبن" في حق من كان متمكناً من أمر فأضاعه من يده، ثم يطلبه بعد فواته، فإنك شبهت حال هذا الرجل بمورد المثل، وهو حال المرأة التي كانت تحت شيخ موسر فسألته الطلاق فطلقها زمن الصيف وتزوجت شاباً فقيراً، فلما دخل الشتاء أرسلت إلى الشيخ تستقيه لبناً فقال لها: الصيف ضيعت اللبن. وقد يستعمل المثل على وجه التشبيه الصريح، وقد يستعمل على وجه الحقيقة المحضة.

المطلب الثاني: أهمية الأمثال في القرآن الكريم

إن حقيقة المثل القرآني هو إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً وأن مضربه عين مورده،(٤) خلافاً للمثل العربي، وأنه تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر. والأمثال القرآنية قد ابتدأها الله دون أن يكون لها مورد من قبل، وبهذا خالفت الأمثال العربية التي لها مضرب ومورد، كما أنها لم تتقيد بالتشبيه ولا بالاستعارة، وإن جاء أكثرها على طريقة التشبيه الصريح، ومنها:

١. الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيتقبله العقل؛ لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء حيث لا يحصل له من إنفاقه على شيء من الثواب، قال تعالى: {...فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىَ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ...} [البقرة:٢٦٤]
٢. تكشف الأمثال عن الحقائق وتعرض الغائب في معرض الحاضر، قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ..} [البقرة:٢٧٥]

(١) مجمع الأمثال. جـ١ – صـ٧
(٢) النهج القويم. صـ٥٣ –٥٤
(٣) التعبير الفني في القرآن، ص ١٧٨.
(٤) راجع مباحث في علوم القرآن. صـ١٣٢

٣. تجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالمثال الكامنة والأمثال المرسلة.
٤. يضرب المثل للترغيب في الممثل، حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلاً حال المنفق في سبيل الله، حيث يعود عليها الإنفاق بخير كثير. قال تعالى: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٦١]
٥. ويضرب المثل للتنفير، حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى: {...وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ...} [الحجرات:١٢]
٦. ويضرب المثل لمدح الممثل به، كقوله تعالى: {...ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ...} [الفتح:٢٩]
٧. ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فتنكب الطريق عن العمل به، وانحط في أهوائه، قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا...} [الأعراف:١٧٥-١٧٦] (١)

من هنا يتبين لنا أن للأمثال في الكلام مكانة مهمة ووظيفة لا تنكر، فله تأثير عجيب في الآذان، وتقرير غريب لمعانيها في الأذهان.

قال إبراهيم النظام: "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة"

والأمثال في القرآن ابتدأها الله دون أن يكون لها مورد من قبل، وبهذا خالفت الأمثال العربية التي لها مضرب ومورد، كما أنها لم تتقيد بالتشبيه ولا الاستعارة، وإن جاء أكثرها على طريقة التشبيه الصريح، ومنها ما جاء على طريقة التشبيه الضمني، وهنا نريد أن نقول: لماذا ضرب الله الأمثال؟

- لقد كان للأفعال في القرآن دور في الدعوة الإسلامية؛ لأنها لون من ألوان الهداية الربانية.
- والأفعال نموذج للحكمة لما غاب عن الأسماع والأبصار لتهدي النفوس.
- التمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامح الأبي كيف لا؟ وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبراز لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في صورة وهيئة المألوف"(٢)

ويقول الإمام عبد القاهر: "واعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أبرزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صوره الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وكسبها منقبة

(١) نقلاً من كتاب موسوعة الأمثال القرآنية. جـ١ – صـ٥٥٨ – ٥٥٩
(٢) الأمثال في القرآن. محمود الشريف– صـ٩ – ١٠

ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفس لها، ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفة، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً.

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضى له بغر المواهب والمنائح، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

وإن كان ذماً كان مسَّه أوجع، وميسمه ألذع، ووقعه أشد، وحدَّه أحد، وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر، وإن كان افتخاراً كان شأوه أمد، وشرفه أجد، ولسانه ألد، وغن كان اعتذاراً كان إلى القلوب أقرب، وللقلوب أخلب، وللخاتم أسل، ولغرب الغضب أفل، وفي عقد العقود انفث، وعلى حُسن الرجوع أبعث، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأوعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأوجد بأن يجلي الغياية ويُبصِّر الغاية، ويبرئ العليل ويشفي الغليل. وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه، وتتبعت أبوابه وشعوبه"(١)

شرع الله –ﷻ– ووحيه وثوابه وعقابه بهذا الأصل بإلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل، وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود، فالغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب، فالأمثال تصور المعاني والمعاني تصور الشخصيات، فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، بخلاف المعاني المعقولة.

المطلب الثالث: فوائد الأمثال

يقول د. عبد الله شحاته تحت عنوان فوائد الأمثال: للمثل فوائد كثيرة، ويكفي أنها تكشف الحقائق وتقرب المعاني إلى الأذهان، وتوضح المتوهم كأنه متحقق. يقول جورجي زيدان: "الأمثال من آداب العرب الهامة لأنها تجري على ألسنتهم مجرى الشعب، وهي عظات بالغة من ثمار الاختبار الطويل والعقل الراجح"(٢)

والأمثال تكسب الكلام سحراً وجمالاً وبلاغة، وتستثير النفوس والعواطف وتملك القلوب والمشاعر وتقوم مقام الحجة والبرهان لصحة حكمها وصدق مدلولاها.

يقول دكتور بكري شيخ أمين :"قد لا نكون بحاجة لذكر فوائد الأمثال في أنها تبرز المعقول في صورة المحسوس، وتكشف عن الحقائق وتقرب المعاني إلى الأفهام، وتعرض الغائب في معرض الحاضر، وتجمع المعنى الرائع في العبارة الموجزة السهلة، وتثبت المعنى في الذهن، وتسهل طريق الوعظ والتأسي، وتدفع إلى الإقناع بأوجز سبيل"(٣)

والأمثال بحق تعد لوناً خاصاً من ألوان الأدب، وفناً من فنونه الرائعة بما حوت من تصوير بليغ للغاية، وبلاغة تركت أثرها وتأثيرها وزيَّن ذلك تعبيرها الموجز في غير اختلال وصدقها في الحديث عن أحداث المجتمع، وبما رسمته من صور لما يجري في الحياة على اختلاف العصور والأمصار. وقد أصبحت

(١) أسرار البلاغة. صـ ١٠١ – ١٠٢
(٢) تاريخ آداب العربية. جـ١ –صـ٥٢
(٣) التعبير الفني في القرآن. صـ٢٢٨

المثال وسيلة من وسائل القياس بين المعاني، لما تصل بين الشيء ونظيره، وتربط بين الماضي والحاضر، وقد زيَّن بها الأدباء والشعراء كلامهم واتخذوها مصباحاً يستضيئون به ليبصروا معالم الطريق، فقد احتوت على ألوان من الأدب والتاريخ يجد فيها الدارس ما يشبع نهمته، وكذلك الباحث ما يشفي غليله، فالأحداث والمعاني كأنها مصورة بل إنها مشاهدة، وفيها التلميح الذي يغني عن التَّصريح، والإشارة التي تغني عن العبارة ويكفي أنها تصور القصة في كلمة موجزة، وتتحدث عن الحدث في عبارة مركزة، فرمزها تعبير، وإشارتها عبارة، ولا يغض من تأثيرها أنها جرت في أسلوب العامة، فالأمثال هي الأمثال ما صُبَّ منها في القوالب الأدبية أم جاء في الأساليب العامية نثراً كانت أو شعراً"[1]

إن الأمثال مرآة الشعوب، توضح العادات والتقاليد وتصور المجتمع أصدق تصوير وقد كانت الأمثال في الجاهلية والإسلام تصويراً صادقاً لحياة العرب في الجاهلية والإسلام.

المبحث الثاني: الأمثال في القرآن الكريم:

المطلب الأول: الأمثال في النصف الأول من القرآن:

في هذا المطلب نتحدث عن الأمثال في النصف الأول من القرآن حسب ترتيب سور القرآن لا حسب نزول القرآن في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهنا نبدأ في أخذ أمثلة توضح قيمة المثل القرآني.

المثل الأول: قال تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [البقرة:١٧ – ١٨] لقد ضرب الله هذا المثل للمنافقين، فقد مثَّل حالهم بحال المستوقد ناراً –والنار يتبعها النور– فلما أضاء لهم النور ذهب الله به، ولم يكن لهم من ضياء آخر غير هداية الله التي نزل بها القرآن يوضح لنا روعة التصوير في هذا المثل الشيخ عرجون فيقول: "هذا تصوير بارع لحال المنافقين يكشف عن خبيئة نفوسهم وقلوبهم المريضة، وعمى بصائرهم وجمود أحاسيسهم، فهم صم لا يسمعون نداء الحق، وإذا سمعوه أشاحوا عنه معرضين بكم لا ينطقون الحق، وإذا نطقوا أصابهم عي البله، وحصروا فلم يستطيعوا أن يبينوا عن ذات أنفسهم، وهم عمى لا يبصرون طريق الحق، فهم في غيهم سادرون لا يرجعون عن ضلالتهم، ولا يفيئون إلى ظل من الأمل في الخلاص"[2]

لقد بلغ هذا المثل قمة الروعة في التصوير، فالأمر المعنوي صار محسوساً ملموساً بفضل هذا المثل، فالخبيئات والطوايا أصبحت أموراً مشاهدة مرئية، فمهما حاول المنافق أن يظهر من بارع الحركات التي تنطلي على هذا وذاك محاولاً أن يعطي صورة غير الواقع ومشهداً لا سند له من حقيقة، فإنه سرعان ما ينكشف.

يقول د. محمد البهي: "خطورة المنافق ليست في أن ذاته خطرة، أو لأن ذاته قوية، بل لأن غيره ينخدع فيه، ولخطورة المنافق في خداع غيره والتَّغرير به"[3]

(١) راجع قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام. صـ٣٣٤
(٢) القرآن العظيم هدايته وإعجازه. صـ١٦٨.
(٣) الإسلام في حياة المسلم. صـ١١٨

وهذا المثل من الوجهة الفنية دقيق المنزع رائع الدلالة عظيم الإيحاء، فالهيئة التي تشبه بها المنافق هيئة مألوفة وبخاصة للعرب وهي إشعال النار في البادية التماساً للضوء، فلقد كان المثل في قمة الروعة من التصوير وفي ذروة السنام من التوضيح.

يقول الدكتور الراجحي: "لقد رسم لنا هذا المثل لا بريشة الفنان ولكن بالألفاظ والعبارات هذه اللوحة الباهرة نفر يسعى لإيقاد نار فتتقد فتضيء ما حوله فلما أضاءت أوشك الموقدون لها أن يصيروا إلى الانتفاع بدفئها ونورها، إذ بنورها فجأة يصير ظلاماً دامساً وإذا بهم في ظلمات لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، كتل بشرية جامدة صماء، في ظلام دامس أحاط بهم من كل جانب، وما كان من ضوء ذهب الله به، وما ذهب الله به فأنى له أن يعود"(١)

وللتعبير القرآني من دقة الأداء وروعة التَّصوير ولطائف البيان ما يدل على سمو الإعجاز القرآني، وهنا لطيفة تناسب المقام. لماذا عبَّر القرآن الكريم بلفظ نار في قوله تعالى: {قال تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً...}؟ يقول د. عبد الحليم حفني: "واختيار النار في هذا الحديث عن الاستضاءة يناسب البيئة حيث إن إلفها لإيقاد النيران أكثر من إلفها للمصابيح"(٢)

ولماذا جاء التعبير بلفظ نور في قوله تعالى: {...فَلَمَّآ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ..}؟ فاختار النور على النار.

يقول د. العرجون: "قال ذهب الله بنورهم؛ لأن المقصود من استيقاد النار هو النور، ثم يوضح أنه إذا ذهب النور وبقيت لهم النار بين أيديهم لا نور لها فسوف تأكل أنفسهم، ويترتب على هذا ما يقوله: أبسلوا ووقعوا في تيه من الحيرة، وأخذهم الدهش واستولى عليهم الرعب والفزع، وهم يرون أصل النور ولا نور"(٣) وفي قوله {ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ} دون أن يقول اذهب الله بنورهم لطيفة بيانية؛ لأن قوله ذهب الله بنورهم يفيد أن الله انتزع النور منهم وأخذه إلى حيث يشاء، فلا مطمع لهم في رده إليهم؛ لأنهم يعلمون انه لا سبيل لهم إلى الحق، بل إن التعبير القرآني أدق، فإنه يفيد أن الله تعالى أزال النور عنهم بإطفائه، وذلك لا يقطع طمعهم فيما يتعللون به من أسباب يستعيدون بها النور، ولذلك جاء تعقيب الآية بما يفيد تيئيسهم من رجع النور {...وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ}.

وفي المثال تشبيه تمثيلي في قوله :{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً...} وحقيقة التشبيه التمثيلي أن يكون وجه الشبه منتزع من متعدد، أي : أن حال المنافقين في نفاقهم وإظهارهم خلاف ما يسترونه من كفر، كحال الذي استوقد ناراً ليستضئ بها ثم انطفأت فلم يعد يبصر شيئاً، وهكذا يبدو التشبيه التمثيلي يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين، ويريك للمعاني المتمثلة بالأوهام شبهاً في الأشخاص الماثلة، وينطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعجم، ويريك الحياة في الجماد. وفي المثل فن رفيع من البلاغة وهو فن مراعاة النظير، وحدَّه أن يجمع المتكلم بين أمر وما يناسبه مع إلغاء ذكر التضاد لتخرج المطابقة، وهي هنا في ذكر الضوء والنّور، وفي المثل استعارة تصريحية في قوله: {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ...}، فقد شبههم بالصم

(١) النهج القويم. صـ٦٠ – ٦١
(٢) أسلوب السخرية. صـ١٥٣
(٣) القرآن العظيم هدايته وإعجازه. صـ١٦٧ – ١٦٨

والبكم والعُمي، وطوى ذكر المشبه به. وهنا سؤال مهم: لماذا شبَّه الله سبحانه حال المنافقين وإظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر بمن استوقد ناراً ثم انقطعت؟ يقول د. الدرويش: "وذلك من ثلاثة أوجه:

١. أن مستوقد النار يستضيء بنورها، وتذهب عنه وحشة الظلمة، فإذا انطفأت ذهبت الاستضاءة وانتفى الانتفاع.
٢. أن مستوقد النار إذا لم يمدها بالوقود ذهب ضوءها، كذلك المنافق إذا لم يستدم الإيمان ذهب إيمانه.
٣. أن مستوقد النار المستضيء بها هو في ظلمة ابراء من نفسه.

المثل الثاني: قال تعالى: {يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنّ وَالأذَىَ كَالّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاّ يَقْدِرُونَ عَلَىَ شَيْءٍ مّمّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٢٦٤]

يقول سيد قطب: "يريد الله أن يبين للناس أن الصدقة التي تبذل رياء، والتي يتبعها المن والأذى، لا تثمر شيئاً ولا تبقى فينقل إليهم هذا المعنى المجدد في صورة حسية متخيلة، ويدعهم يتمثلون هيئة الحجر الصلب المستوي غطته طبقة خفيفة من التراب فظُنَّت فيه الخصوبة، فإذا وابل من المطر يصيبه، وبدلاً من أن يهيئه للخصب والنماء كما هي شيمة الأرض حين تجودها السماء –إذابة– كما هو المنظور– يتركه صلداً، وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره وتخيل فيه الخير والخصوبة"[١]

وهذا المعنى الرائع الذي تضمنه المثل في تصوير أخاذ ودقة بالغة، فالمعنى الذهني الذي صوره القرآن في صورة مشاهدة حسية كأنه في عالم الطبيعة مرئي، يدل على طريقة القرآن الواضحة في تصويرها للمعاني الذهنية؛ لأنها طريقته المفضلة والأسلوب الغالب في تعبيره. يقول ابن القيم: "وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ وانطباقها على أجزاء الممثل به تعرف عظمة القرآن وجلالته فإن الحجر في مقابلة قلب هذا المرائي والمان والمؤذي، فقلبه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر، فقسوة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء وينبت الكلأ"[٢]

فهذا مشهد كامل مؤلف له جزئياته، يتسق بعضها مع بعض من ناحية فن الرسم وفن العرض، ويتسق كذلك مع ما يمثله من المشاعر والمعاني التي رسم المنظر كله لتمثيلها وتشخيصها وإحيائها.

يقول د. محمد رجب البيومي: "لقد علم الله من أمراض النفوس البشرية ما يدفعها إلى زلتين خطيرتين إذ تتعالى بصدقتها على الفقراء مباهاة وغطرسة فتندفع إلى المن المستعلي تارة وإلى التفاخر بالعطاء كسباً للإعجاب الأرضي وجلباً للتقدير البشري تارة أخرى. مع أنها ما سمعت بالخير إلا بعد أن رأت وعود السماء بمضاعفة الأجر وإجزال المثوبة، وكأنها لا تقنع بثواب الآخرة حين تشرك بالله من تحرص على مراءاته فتنفق المال طمعاً في نباهة الذكر بين الناس أو تمن به إرضاء لنزعة استعلاء مقيت... ثم يقول: "فكيف يكون شعور هذا الواعي حين يبذل الحسنة الواحدة منتظراً أن تكون لدى الله سبعمائة كما وعد، ثم تكون عاقبته كالعاقبة المتوقعة لحجر من الأحجار عليه تراب قليل جاءه وابل فتركه صلداً لا يقدر على نماء، واختيار الصفوان في هذا الموقف مما يناسب الجو التصويري فكم بين البخيل الذي لا يجود

(١) التصوير الفني في القرآن. صـ٣٥
(٢) أعلام الموقعين. جـ١ – صـ٢٠٣، وكتاب الأمثال. صـ٢٥٨

ابتغاء مرضاة ربه، بل طلباً للزلفى الدنيوية وبين الحجر الصلد من مشابهة في إمساك الخير، وفقد الحس وموت الشعور، إنك حين تريد أن تهجوه أعنف الهجاء لن تجد أبلغ من أن ترميه بقولك: صفوان عليه تراب"(١)

وللقرآن الكريم تعبيرات لو تغير فيها لفظ، أو وضعت كلمة مكان أخرى لا يمكن أن يؤدي هذا التعبير، أو اللفظ الجديد المعنى في الصورة الرائعة التي عبر بها القرآن. يقول د. أحمد فتحي عامر: "وكلمة التراب تصلح في موقف لا تصلح له كلمة الرماد، وكلمة الرماد تصلح في موقف لا تصلح له كلمة التراب دقة في التمييز بين معاني الكلمات. فالمن والأذى يبطلان الصدقة، وشأن المتصدق على هذا النمط شأن المنفق مراءاة للناس، وهو كافر بالله واليوم الآخر، ومثل هذا الأخير كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل، فتركه صلداً لا شيء عليه، والذي ينطبع في الحس أن الإنفاق على هذا المستوى ساقط في الأرض ملوث بالتراب لا يفيد منه سائل ولا محتاج، وكلمة الصفوان قبل كلمة التراب توحي بالجفاف والثقل الذي يصاحب هذا الإنفاق المرذول، كما أن كلمة تراب توحي بأن الصدقة من هذا النوع حقيرة ولو كانت كثيفة التراب"(٢)

المثل الثالث: قال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ} [الرعد:١٧]

المثل بيان لحال الحلق والباطل اللذين انكشف أمرهما وتبيَّن حالهما بما قام عليه الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة، وقد جاء تمثيلها على هذا الوجه من أروع أنواع التمثيل وأبدعه، فلقد أبرزها في صورتين يراهما الناس رؤية متكررة، وقد اقتر في كل منهما أنفع سيء بأتفهه وأغلى شيء بأبخسه.

ومن دقائق هذا التمثيل البديع أن كلاً من الحق المضروب له المثل، والماء الممثل به يتنزل من السماء، فالحق أمره ظاهر وتنزل الماء من السماء على معنى تنزله من العلو، وكذلك يشتركان في أن كلا منهما يأخذ منه ما صادفه وتلقاه بقدر احتماله؛ فالأودية تأخذ من الماء بحسب سعتها، والقلوب تأخذ من الحق بحسب استعدادها، ويشتركان –أيضاً– في أن الماء منه ما يظهر أثر منفعته فيما أصابه حالاً كالأرض المستعدة للإنبات.. ومنه ما يختزن في الأرض فتمسكه للناس، فانظر إلى هذا التجلي البليغ في الأسلوب البديع ينتقل بك إلى نتيجة مرتبة على ما سبق بعبارة كأنها من ضمن ما كان الكلام فيه، ومن سوق الدلائل والبراهين على القدرة والسلطان، فبالله ما أبلغ ذلك! (٣)

ومراعاة المناسبة بين المثل والممثل به لا يغفل القرآن عنها، فقد شبَّه المترددين بقوم أمطرتهم السماء في ليلة ذات رعد وبرق، فلم يلتفتوا للغيث ولم ينتفعوا بالشرب منه، بل كان اهتمامهم موجهاً إلى الظلمات والرعد والبرق، فالمثل جعل الزبد الرابي أي الغثاء الطافي على السطح والرغوة المنتفشة مع المواد الغريبة المختلطة بالمعدن مثلين للباطل.. وما أتفه الغثاء والرغوة وتعبيرات القرآن –دائماً– لدقتها

(١) الإعجاز البياني. صـ٩٥ – ٩٦
(٢) فكرة النظم. صـ١٣٦
(٣) خطوات التفسير البياني. صـ١١٣ – ١١٥

وانسجامها لا تسمح لتعبيرات أخرى تحل محلها، فعبَّر في هذا المثل بكلمة أودية نكرة يقول الزمخشري: "لأن المطر لا يأتي إلا عن طريق المناوبة بين البقاع فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض"(١)

وفي التعبير "بقدرها" جمال أي جمال لأنه لو زاد عنها لكان ضاراً والله -ﷻ- يضرب المطر مثلاً للحق، والمطر نافع للناس ولكن في حدود، فلو زاد لكان سيولاً مدمرة، فهذا من الدقة البيانية في القرآن، وكذلك في المثل الثاني في قيد، كما جاء في قوله: {وَمِمّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ} فقيده هنا بقوله ابتغاء حلية أو متاع، فليس كل ما يوقد عليه في النار مفيداً، فحتى يكون التشبيه ملائماً للحق كما في المثال الأول قيده بهذا القيد.

والمثل بعد هذا صورة بديعة قرَّبت المعقول إلى عالم المحسوس، فالحق والباطل وهما أمران معنويان أصبحا في قالب حسي يُرى ويشاهد، وحتى تقترب الصورة من الذهن صورت بمثالين محسوسين صورة الماء النازل من السماء فغمر الأرض والوديان وفيها ما فيها من الزبد، فإذا بالماء ينساب إليها ويحمل معه هذا الغثاء الذي يُلقى به ويبقى بعد ذلك الماء النافع للناس، فكذلك الحق يبقى ويذهب الباطل كما يذهب الزبد.

والصورة الثانية صورة المعدن يصهر بالنار فتخرج الخبث وتبقى على المعدن الخالص، فهذه الصورة الحسية المألوفة المشاهدة قربت إلينا حقيقة الحق وماهية الباطل.

المطلب الثاني: الأمثال في النصف الثاني من القرآن

المثل الأول. قال تعالى: {يَأيّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذّبَابُ شَيْئاً لاّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ إِنّ اللّهَ لَقَوِيّ عَزِيزٌ} [الحج:٧٣- ٧٤]

ولقد كان ضرب هذا المثل مثار استغراب من المشركين وغيرهم، وقالوا: كيف يضرب الله الأمثال بالشيء الحقير؟ فكان الرد عليهم: {إِنّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْى أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...} [البقرة:٢٦]

فالله -ﷻ- يريد أن يبين ضعف الآلهة التي يعبدونها وعجزها، فيختار ما يؤدي الصورة المطلوبة، ولكن غفلة هؤلاء وبلادتهم دفعتهم إلى الإنكار، وهناك فرق بين الممثل به والغرض من المثل. يقول د. حجاب: "لقد جاءت في صورة أدبية بلغت حد الإعجاز، كما جاءت لتحقيق أغراض لا تتم على أكمل الوجوه إلا بها، فإذا كان القرآن الكريم يصور للمشركين ضعف آلهتهم التي عبدوها من دون الله وعجزها الفاضح، فأي شيء أبلغ في تحقيق هذا الغرض من قوله تعالى: {إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً..} أيعيبون ذلك لأن الذباب شيء صغير حقير؟ إذن فلتجمع آلهتهم كل قواها لخلق هذا الذباب الحقير، أو استنقاذ شيء سلبهم إيَّاه!" (٢)

والتمثيل الذي جاء في الآية غريب لم يسبق، وطريف في بابه، فقد حوى معنى لم يسبق إليه أحد، ولم يتبع فيه، فقد ذكره ابن أبي الإصبع في باب "سلامة الاختراع من الاتباع" فقال: "وهو أن يخترع الأول معنى لم يسبق إليه ولم يتبع فيه، ثم قال: فانظر إلى غرابة هذا التمثيل الذي تضمن الإفراط في المبالغة مع

(١) الكشَّاف. جـ٢ – صـ٢٨٥، وتأملات في سورة الرعد. صـ٢٤
(٢) من بدائع النظم القرآني. صـ١٤٥

كونها جارية على الحق، خارجة مخرج الصدق، وذلك حين اقتصر سبحانه على ذكر أضعف المخلوقات وأقلها سلباً لما تسلبه، وتعجيز كل من دونه سبحانه كائناً من كان عن خلق مثله مع التضافر والاجتماع، ثم نزل في التمثيل عن رتبة الخلق، إذ هما مما يعجز عن مثلهما كل قادر غير الله -ﷻ- إلى استنقاذ النذر التفه الذي يسلبه هذا الخلق الضعيف على ضعفه، ويعجز كل قادر من المخلوقين على استنقاذه منه، فتنقل في النزول في التمثيل على ما تقتضيه البلاغة على الترتيب..." (١)

وهذا أبلغ ما أنزل في تجهيل قريش واستركاك عقولهم، والشهادة على أن الشيطان خزمهم بخزائمه حيث وصفوا بالآلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صوراً وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا. يقول د. الجيزاوي: "وهذه الصورة القرآنية للأصنام وعجزها جسمت الشرك بصورة مهنية بغيضة وبأسلوب تهكمي يدفع العابد أن يفكر ألف مرة قبل إقدامه على هذا العمل، فالذي عجز عن الخلق وعجز عن استرداد ما سلب منه كيف نعيده؟!"(٢)

وهذا الضعف يصوره المثل أبلغ تصوير، ويعرضه في صورة أمام الأسماع والأبصار. يقول سيد قطب: "هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار، مصور في مشهد شاخص متحرك، تتملاه العيون والقلوب، مشهد يرسم الضعف المزري ويمثله أروع تمثيل"(٣)

ولكن لماذا اختار الله التعبير بالذباب؟ يجيب القرطبي قائلاً: "وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته وضعفه ولاستقذاره وكثرته"(٤)

وعجز الآلهة التي كان العرب يعبدونها من دون الله، يمكن أن يؤدي في عدة تعبيرات ذهنية مجردة، ولكن التعبير التصويري يؤديه في هذه الصورة فيشخص هذا المعنى ويبرز في تلك الصور المتحركة المتعاقبة. لن يخلقوا ذباباً "هذه درجة" ولو اجتمعوا "وهذه أخرى" "وإن يسلبهم الذباب شيئاً" هذه ثالثة، أرأيت إلى تصوير الضعف المذري وإلى التدرج في تصويره بما يثير في النفس السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ولكن أهذه مبالغة؟ وهل البلاغة فيها هذا الغلو؟ كلا فهذه حقيقة واقعة بسيطة إن الإبداع الفني هنا هو في غرض هذه الحقيقة في صورة تلقي ظلال الضعف عن خلق أحقر الأشياء والجمال الفني هنا هو في تلك الظلال التي تضيفها محتويات الصورة، وفي الحركة التخيلية في محاولة الخلق، وفي التجمع له، ثم محاولة الطيران خلف الذباب لاستنقاذ ما يسلبه"(٥)

حقاً ما كان يمكن لتعبير غير تعبير القرآن أن يعطي هذه الصورة التي وضَّحت عجز الآلهة. المثل الثاني: قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [النور:٤٠]

إن التصوير لهذه الحالة التي مثلت جانباً من جوانب أعمال الكفار، وإن كان جانباً معتماً يقول د. بيومي: "أما صورة الغواية الكافرة، فلا نجد أبلغ في تصويرها من قول الله: أو كظلمات.. إن الظلام في

(١) بديع القرآن. صـ٢٠٠ – ٢٠١
(٢) من توجيهات القرآن التربوية. صـ٢٦، وراجع القرآن والتفكير. صـ٨٢ –٨٣
(٣) في ظلال القرآن. صـ٢٤٤٣
(٤) تفسير القرطبي. جـ١٧ – صـ٩٧
(٥) راجع التصوير الفني. صـ١٩٥ – ١٩٦

الطريق البري كارثة تنذر بالهول فما ظنك بها حين تكون ظلمات في بحر لجي، ليته كان بحراً هادئاً تسكن ريحه، ويهدأ إعصاره ليجد السابح بعض الاطمئنان في سبحه الممتد، ولكنه بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض، أتتصور في هذا الديجور المتراكب بصيصاً يلوح أو شعاعاً يهدي؟ كيف والسابح الحائر في لججه يتخبط في ظلام رهيب إذا أخرج يده لم يكد يراها"(١)

ويقول سيد قطب: "هنا صورة ساحرة، فيها روح القصة، وفيها تخيل قوي... وهي بعد في حاجة ريشة مبدعة، لو أريد تصويرها بالألوان، وإلى عدسة يقظة، لو أريد تصويرها بالحركات. بل أين هي الريشة، أو أين هي العدسة، التي تستطيع أن تبرز هذه الظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب؟ ظلمات بعضها فوق بعض"(٢)

المثل الثالث: قال تعالى: {يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ اجْتَنِبُواْ كَثِيراً مّنَ الظّنّ إِنّ بَعْضَ الظّنّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسّسُواْ وَلاَ يَغْتَب بّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتّقُواْ اللّهَ إِنّ اللّهَ تَوّابٌ رّحِيمٌ} [الحجرات:١٢]

لقد صوَّر الله المغتاب على أفحش وجه وأشنعه، وضرب له مثلاً من يأكل لحم أخيه ميتاً، وذلك أن صاحب العرض يغار على عرضه ويألم له كما يألم الرجل من تمزيق لحمه، فالمغتاب يمزق لحم من يغتابه ولما كان ممزق اللحم غير حاضر وغير محس تمزيق عرضه وقت الغيبة، كان كالميت إذا مزق لحمه وكان المغتاب آكلاً لحم أخيه ميتاً.

يقول د. الجويني: "تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أقطع وجه وأشنعه وأفحشه، وفيه مبالغات شتى منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأخوين لا يحب ذلك، ومنها أن لم يقتصر تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخاً ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً"(٣)

يقول ابن القيم : "فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه والمحسوس وتأمل إخباره عنهم بكراهة أكل لحم الأخ ميتاً، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يحب أحدهم ذلك، فكما أن هذا مكروه في طباعهم، فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره؟ فاحتج عليهم بما كرهوا على ما أحبوه، وشبَّه لهم ما يحبونه بما هو اكره شيء إليهم، وهم أشد نفرة عنه، فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة ان يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره، ومشبهه"(٤)

المطلب الثالث: عظمة الأداء القرآني للمثل

لقد رأينا فيما سبق أن المثل القرآني اتسم بالعظمة في أدائه؛ لأنه نوع من أنواع وأساليب القرآن التي وصلت أوج قمتها ونهاية عظمتها، ولم يتخلف عنها في الأداء أو التعبير، لقد امتاز المثل القرآني عن الأمثال العربية مما جعلها دونه، فالأسلوب بليغ، والعبارة قوية، والمعنى فخم، ومضرب المثل القرآني عين

(١) البيان القرآني. صـ٩١ – ٩٢
(٢) التصوير الفني. صـ١٩٨
(٣) منهج الزمخشري في تفسير القرآن. صـ٢٥٥ – ٢٥٦، وراجع المثل السائر. جـ٢ – صـ٢٠٣ – ٢٠٤
(٤) أعلام الموقعين. جـ١ – صـ١٨٥ – ١٨٦

مورده، بخلاف المثل العربي الذي يختلف مضربه عن مورده، كما أن المثل العربي اكتسب شهرة وذيوعاً من كثرة استعماله، والمثل القرآني لم يلتزم بهذا الشرط والمثل العربي كما قال علماء البيان: إنه التشبيه الصريح والضمني والاستعارة، ولم يلتزم القرآن بهذه الشروط، فمن المثل القرآني ما لم يرد فيه تشبيه ولا استعارة، كقوله تعالى: {يَأَيّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ إِنّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً }

وقد أشرنا من خلال الدراسة إلى دقة التعبير، وذكرنا بعض اللطائف البيانية التي توضح لماذا أوثر التعبير بكذا؟ واختيار كلمة دون أخرى على ضوء آراء العلماء. والتحليلات التي سقناها خلال الحديث عن الأمثال أظهرت بما لا يدع مجالاً للشك مدى الدقة في اختيار الألفاظ والتراكيب من الجزالة والمتانة، والقوة والسبك، بحيث يختل المعنى لو استغنى عن لفظ، أو لو عبر عنه بلفظ آخر يؤدي معناه، وكل هذا بيَّن لنا روعة التصوير القرآني للأمثال فالمعاني هادفة، ونبيلة وفخمة، تهدئ الحائر، وترشد الضال، وتقوِّم المعوج، ولا تزال لها جدتها وطلاؤها، وحلاوتها وطلاوتها، فارتقت أهدافها لسمو غرضها وقد تمازجت الألفاظ والمعاني، فتحقق الغرض المقصود، والهدف المنشود.

المطلب الرابع: ملاحظات على أمثال القرآن

بعد هذا العرض السريع والبسيط يمكن لنا أن نبدي بعض الملاحظات على أمثال القرآن:

١. تعددت موضوعات الأمثال من إيمان وكفر ونفاق وإنفاق وأعمال صالحة وغير ذلك.
٢. تعددت الأمثال في موضوع واحد، ومع هذا التعدد لم نلحظ تكراراً؛ لأن المعنى المراد تصويره له جوانب عدة، وملامح متفاوتة، واعتبارات متنوعة، ومع هذا التعدد في موضوع واحد ولكن تحس وأنت تقرأ المثل أن لهذا المثل جانباً يختلف عن المثل الآخر، وفي صياغة جديدة، وصور مختلفة، لا تحس منها بالنبو أو الحشو، أو الزيادة والتكرار.
٣. تصوير العقلي بالمحسوس، والغائب بالمشاهد، والخفي بالجلي، كأنك تراه وتشاهده.
٤. الأمثال القرآنية وصلت إلى أغوار النفس ودخائلها فصورتها كأنها مشاهدة.
٥. الأمثال القرآنية وسيلة من وسائل الإفهام، وتبصرة للعقول، وتوجيه للأفكار وتذكير ووعظ في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.
٦. الأمثال القرآنية أسلوب من أساليب التَّربية لتقريب الحق إلى النفوس.
٧. الأمثال القرآنية لون من ألوان الأدب، امتاز بسرعة التصوير، ودقة الأداء وإحكام العبارة، وتناسق الألفاظ، والإحاطة بالموضوع، فكانت ذروة سنامه.

الخاتمة

القرآن معين لا ينضب، وعطاء متجدد، ومأدبة لا تنفذ، فالبحث الذي شرف بأن يكون موضوعه "الأمثال القرآنية وروعة الصور البيانية" ما هو إلا قطرة من بحر ومتى جف البحر؟ فالأمثال القرآنية وحدها جانب من جوانب الإعجاز، ولون من ألوان الأدب العريقة إضافة إلى أهدافها وأغراضها، وما كان حديثي عن هذا الجانب كله وإنما كان عن جانب من جوانبها العديدة؛ لأن الأمثال القرآنية إعجاز، وإرشاد، وهداية، وتوجيه وتعليم، وتصوير للغائب كأنه مشاهد، ونقله بالمعقول إلى المحسوس في مجالات عديدة،

وموضوعات كثيرة بأسلوب بلغ الروعة في الأداء، والقمة في السبك، والتناسق الفني، فألفاظ منتقاة، وعبارات قوية، وتصوير رائع.

وهي مجال خصب للكتابة ولست بهذا أدعي أني وفّيت الموضوع حقه، أو شارفت الوصول إليه، وإنما كنت كالواقف على بحر، يأخذ ما يري ظمأه، ويطفئ عطشه، فإذا كان لي من جهد، فهو أني أمتعت عيني بالنظر في كتاب الله. والبحث جديد في موضوعه، طريف في بابه، فمن سبقني بالكتابة فيه تحدثوا عن جوانب منه. أما هذا البحث فقد عُني بالحديث عن روعة التصوير، والحديث عن الأمثال شتات في الكتب والمراجع، ومتناثر بين بطونها، ولو لم يكن للبحث إلا جمع هذه الحلقات، وضمها في عقد واحد، منسق ومرتب فيكفي، وهذا هو الجانب الملحوظ. وأسأل الله أن يجعل هذا خالصاً لوجهه؛ لأنال مرضاته.

التوصيات

١. استمرارا مثل هذه الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم بشكل موسع لعرض جميع النواحي التي تعرض لها علماء البيان لدراسة الأمثال.
٢. توحيد جهود كل علماء البيان القدامى والمحدثين في عمل واحد يُعرض فيه موضوع الأمثال وأنواعها ومقارنتها بأساليب العرب البلاغية.
٣. إقامة دراسات دلالية في أسلوب القرآن الدلالي وربط هذه الدراسة بموضوع الأمثال القرآنية وروعة الصورة البيانية.
٤. تدريس موضوع الأمثال في القرآن من خلال الصورة البيانية في مراحل التعليم المختلفة لأهميتها.
٥. على الجهات الرسمية إعطاء هذا الموضوع أهمية، كعمل ورش ومشاغل وندوات تناقش هذا الموضوع.
٦. يجب على الذين يتصدون لتدريس القرآن الكريم أن يكون لديهم دراية بهذا الموضوع وأن يحرصوا على تدريسه والعناية به أثناء تدريسهم للناشئة من الطلاب.

المصادر والمراجع

١. أساس البلاغة –الزمخشري– ت. عبد الرحيم محمود– دار المعرفة– بيروت– ١٣٩٩هـ.
٢. أسرار البلاغة– عبد القاهر الجرجاني– ت. أحمد مصطفى المراغي– مطبعة الاستقامة– القاهرة.
٣. الإسلام في حياة المسلم– د. محمد البهي– ط. ٥ –مكتبة وهبة.
٤. أسلوب السخرية في القرآن الكريم– عبد الحليم حنفي– الهيئة العامة للكتاب.
٥. الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره– د. محمد احمد يوسف القاسم– دار المطبوعات الدولية.
٦. أعلام الموقعين عن رب العالمين– ابن القيم الجوزية– ت. عبد الرحمن الوكيل– دار الكتب الحديثة بالقاهرة.
٧. الأمثال في القرآن– د. محمود بن الشريف– سلسلة اقرأ– العدد ٢٦٥– دار المعارف.
٨. بديع القرآن المجيد– لابن أبي الإصبع– ت. حفني محمد شرف– ط. نهضة مصر بالفجالة.

٩. البيان القرآني- د. محمد رجب البيومي- إصدار سلسلة البحوث الإسلامية- مجمع البحوث.
١٠. تأملات في سورة الرعد- حسن محمد باجودة- دار الاعتصام- ط. ١٩٧٩م.
١١. تاريخ آداب اللغة العربية- جورجي زيدان- ط. مطبعة الهداية.
١٢. التصوير الفني في القرآن- سيد قطب- دار الشروق- ط.٦ -١٩٨٠م
١٣. التعبير الفني في القرآن- د. بكري شيخ أمين- دار الشروق- بيروت.
١٤. الجامع لأحكام القرآن- القرطبي- دار الكتب المصرية- ط.١٩٤٦م.
١٥. جمهرة اللغة- لابن دريد- دار المعارف العثمانية.
١٦. خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم- مجمع البحوث الإسلامية- د. محمد رجب البيومي- عدد ٤٢- سنة ١٩٧١م.
١٧. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم- د. فتحي احمد عامر- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة.
١٨. في ظلال القرآن- سيد قطب- دار الشروق- ط. بيروت- ١٩٧٩م
١٩. القرآن والتفكير- د. أحمد محمد الحوفي- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
٢٠. القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين- محمد الصادق عرجون- مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٦٦م.
٢١. قطوف من ثمار الأدب في الجاهلية وصدر الإسلام- د. بد السلام سرحان- مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة.
٢٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعنوان الأقاويل في وجوه التأويل- الزمخشري- المكتبة التجارية بمصر- ط.١ – ١٣٥٤هـ.
٢٣. لسان العرب- لابن منظور- دار المعارف المصرية.
٢٤. مباحث في علوم القرآن- مناع القطان- الدار السعودية للنشر- ط. ١٣٧٩هـ.
٢٥. مجمع المثال- الميداني- ت. محمد أبو الفضل- عيسى البابي الحلبي- القاهرة.
٢٦. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر- لابن الأثير- ح/ أحمد الحوفي- مكتبة نهضة مصر.
٢٧. من توجيهات القرآن التربوية- د. سعد الدين الجيزاوي- المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
٢٨. من بدائع النظم القرآني- د. السيد عبد الفتاح حجاب- مطبعة الجندي- بنها.
٢٩. المنجد في اللغة والأعلام- أ. لويس معروف- دار الشروق- بيروت- ط.٢٢ -١٩٧٣م.
٣٠. منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه- د. مصطفى الصاوي الجويني- دار المعارف- مصر.
٣١. موسوعة الأمثال القرآنية- د. محمد عبد الوهاب عبد اللطيف- مكتبة الآداب.
٣٢. النهج القويم في دراسة علوم القرآن الكريم- د. عبد الغني عوض الراجحي- عيسى البابي الحلبي.